تمام المنة
في بيان
حكم الفتنة والمحنة

البشلي

إعداد
محمد بن عبد الله الطالبي

مكتبة السنة

الطبعة الأولى لمكتبة السنة بالقاهرة

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

مكتبة السنة
الدار السلفية لنشر العلم



القاهرة : ٨١ شارع البستان - ميدان عابدين ،ناصية شارع الجمهورية،
تليفون : ٣٩٠٠٣١٨ - ٣٩١٣٥٣٢ فاكس : ٣٩١٣٥٣٢ - تلكس: ٢١٧١٩ TLTHRB UN
ص . ب : ١٢٨٩ - الرمز البريدى : ١١٥١١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُسلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنهَا زَوجَهَا وَبَثَّ مِنهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيكُم رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَولاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصلِح لَكُم أَعمَالَكُم وَيَغفِر لَكُم ذُنُوبَكُم وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَد فَازَ فَوزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فهذه رسالة صغيرة الحجم، عظيمة الفائدة؛ قصدت منها أن أبين أن المصائب والمحن التي يبتلي الله تعالى بها العبيد ليست شرًا محضًا، بل فيها من الخير الكثير، ولكن بشرط أن يتمعن العبد فيها، ويصبر عليها كما أمر الله عز وجل ورسوله ﷺ.

واعلم أن العبد ما دام في الحياة الدنيا فهو معرض للمصائب والمحن، كما هو معرض للنعم والمنن، قال الله تعالى: ﴿وَنَبلُوكُم بِالشَّرِّ وَالخَيرِ فِتنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قال ابن القيم في «الوابل الصيب» (ص ١١-١٢ صحيحه):

«ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الله سبحانه وتعالى المسؤول المرجو الإجابة أن يتولاكم في الدنيا والآخرة، وأن يسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وأن يجعلكم ممن إذا أنعم عليه شكر، وإذا ابتُلِيَ صبر، وإذا أذنب استغفر؛ فإن هذه الأمور الثلاثة عنوانُ سعادة العبد، وعلامةُ فلاحِه في دنياه وأخراه، ولا ينفكُّ عبدٌ عنها أبدًا، فإن العبدَ دائمُ التَّقَلُّبِ بين هذه الأطباق الثلاث:

الأول: نعم من الله تعالى تترادف عليه، فقيدُها الشكر، وهو على ثلاثة أركان: الاعتراف بها باطنًا، والتحدث بها ظاهرًا، وتصريفها في مرضاة وليّها ومُسديها ومُعطيها.

فإذا فعل ذلك؛ فقد شكرها - مع تقصيره في شكرها.

الثاني: مِحَنٌ من الله تعالى يبتليه بها، ففَرضُهُ فيها الصبرُ والتسلي.

والصبر: حبس النفس عن التَّسَخُّط بالمقدور، وحبسُ اللسان عن الشكوى، وحبسُ الجوارح عن المعصية؛ كاللطم، وشق الثياب، ونتف الشعر، ونحوه.

فمدارُ الصبر على هذه الأركان الثلاثة، فإذا قام به العبد كما ينبغي؛ انقلبت المحنةُ في حقه مِنحةً، واستحالت البليّةُ عطيةً، وصار المكروه محبوبًا.

فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتليهِ ليهلكه، وإنما ابتلاه ليَمتَحِنَ صبرَه، وعبوديَّتَهُ، فإن لله تعالى على العبد عبوديةً في الضرَّاءِ كما له عبوديةٌ في السرَّاء، وله عبوديةٌ عليه فيما يكره؛ كما له عبودية فيما يحبُّ، وأكثرُ الخلقِ يعطون العبودية فيما يحبُّون.

والشأن في إعطاء العبودية في المكاره ففيه تفاوت مراتب العباد، وبحسبه كانت منازلُهم عند الله تعالى.

فالوضوء بالماء البارد في شدة الحرّ عبوديةٌ، ومباشرةُ زوجتهِ

الحسناءِ التي يحبُّها عبوديةٌ، ونفقته عليها وعلى عياله ونفسه عبوديةٌ.

هذا، والوضوءُ بالماء البـاردِ في شدة البرد عبوديةٌ، وتركُهُ المعصية التي اشتدت دواعي نفسه إليها من غير خوفٍ من الناس عبوديةٌ، ونفقته في الضرَّاء عبوديةٌ.

ولكن فرق عظيم بين العبوديتين.

فمن كان عبدًا لله في الحالتين، قائمًا بحقه في المكروه والمحبوب، فذلك الذي تناوله قولُه تعالى: ﴿أَلَيسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

وفي القراءة الأخرى: ﴿عبادَهُ﴾. وهما سواء، لأن المفرد مضافٌ فيعم عموم الجمع.

فالكفاية التامة مع العبودية التامة، والناقصة مع الناقصة، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

وهؤلاء هم عباده الذين ليس لعدوِّه عليهم سلطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيسَ لَكَ عَلَيهِم سُلطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

ولما علم عدوُّ اللهِ إبليسُ أن اللهَ تعالى لا يُسلِم عباده إليه، ولا يُسَلِّطه عليهم قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغوِيَنَّهُم أَجمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنهُمُ المُخلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]. ﴿وَلَقَد صَدَّقَ عَلَيهِم إِبلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ المُؤمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيهِم مِن سُلطَانٍ إِلاَّ لِنَعلَمَ مَن يُؤمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّن هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢٠-٢١].

فلم يجعل لعدوه سلطانًا على عباده المؤمنين، فإنهم في حرزه وكلاءته وحفظه، وتحت كنفه، وإن اغتال عدوُّه أحدَهم؛ كما يغتال اللصُّ الرجلَ الغافلَ؛ فهذا لابد منه؛ لأن العبد قد بُلي بالغفلة والشهوة والغضب، ودخوله على العبد من هذه الأبواب الثلاثة، ولو احترز العبد ما احترز، فلابد له من غفلة، ولابُدَّ له من شهوة، ولابُدَّ له من غضب....

فإذا أراد اللهُ بعبدِه خيرًا، فتح له من أبواب التوبة والندم، والانكسار والذل والافتقار، والاستعانة به وصدق اللجإ إليه، ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به سبب رحمته، حتى يقول عدوُّ اللهِ: ياليتني تركته ولم أوقعه» اهـ.

وصدق الله عز وجل إذ قال: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩].

ومن القراء من قرأ ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ بفتح التاء المثناة الفوقانية، وفتح الباء الموحدة.

«قال الطبري رحمه الله في تفسيره:

«وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب: قراءة من قرأ بالتاء وبفتح الباء؛ لأن تأويل أهل التأويل من جميعهم بذلك ورد، وإن كان للقراءات الأخر وجوه مفهومة، وإذا كان الصواب من القراءة

في ذلك ما ذكرنا، فالصواب من التأويل قولُ من قال: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أنت يا محمد حالاً بعد حال، وأمرًا بعد أمرٍ من الشدائد، والمراد بذلك - وإن كان الخطاب إلى رسول الله موجهًا - جميع الناس أنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أهوالاً».

وقال ابن القيم رحمه الله (التفسير القيم) :

«قول الله تعالى ذكره: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي حالاً بعد حالٍ. فأول أطباقه: كونه نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم جنينًا، ثم مولودًا، ثم رضيعًا، ثم فطيمًا، ثم صحيحًا أو مريضًا، غنيًا أو فقيرًا، معافىً أو مبتلىً إلى جميع أحوال الإنسان المختلفة عليه إلى أن يموت، ثم يبعث، ثم يوقف بين يدي الله، ثم يصير إلى الجنة أو النار» اهـ[1].

فالمقصود أن هذا حال الإنسان في الحياة الدنيا، يتحول من حالٍ إلى حالٍ، من حال الصغر إلى الكبر، ومن الصحة إلى المرض، ومن الطاعة إلى المعصية.

والسعيد من عرف لله تعالى حقه في ذلك كله، فعمل بطاعته سبحانه وتعالى في جميع الحالات، فتنقلب المحنة في حقه منحة، وتستحال البلية في حقه عطية.

---

(١) من قوله: قال الطبري إلى هنا نقلاً من كتاب "التسهيل لتأويل التنزيل" جزء عم لمصطفى ابن العدوي حفظه الله.

هذا، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يغفر لنا جميع ذنوبنا، وأن يجعلنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا إنه وليُّ ذلك والقادر عليه. آمين آمين آمين.

وكتبه

محمد بن عبد الله الطالبي

عفا الله عنه وعن والديه

فصل
في قول النبي ﷺ: «والشر ليس إليك»

عن علي بن أبي طالب[1] رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة قال: «وَجَّهتُ وَجهي لِلَّذي فَطَرَ السَّمَواتِ والأرضَ حَنِيفًا وَمَا أنا مِنَ المُشرِكِينَ، إنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمحيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذلكَ أُمرتُ وَأَنَا أَولُ المُسلِمِينَ، اللَّهمَّ أنتَ المَلِكُ، لا إلهَ إلاَّ أنتَ، أنتَ رَبِّي وأنا عَبدُكَ، ظَلَمتُ نَفسِي وَاعتَرَفتُ بِذَنبي فَاغفِر لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إنَّهُ لا يَغفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أنتَ، واهدِنِي لأَحسَنِ الأَخلاقِ لا يَهدِي لأَحسَنِها إلاَّ أنتَ. واصرِف عَنِّي سَيِّئَهَا لا يَصرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إلاَّ أنتَ، لَبَّيكَ وَسَعدَيكَ! والخَيرُ كُلُّه في يَدَيكَ، والشَّرُّ لَيسَ إلَيكَ، أنا بِكَ وَإلَيكَ، تَبَارَكتَ وَتَعَالَيتَ أستَغفِرُكَ وَأتُوبُ إلَيكَ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (كتاب الحسنة والسيئة) في

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) صلاة المسافرين، وأبو داود (٧٦٠) الصلاة، والترمذي (٣٤٢) الدعوات، والنسائي (٢/١٣٠) الافتتاح.

معرض الكلام على قول الله تعالى: **﴿مَا أَصَابَكَ مِن حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفسِكَ﴾** [النساء: ٧٩]، وما هو الفرق بين الحسنات التي هي النعم من عند الله، والسيئات التي هي المصائب من نفس الإنسان؟ فقال رحمه الله: «**الفرق الرابع:** أن الحسنة مضافة إليه، لأنه أحسن بها من كل وجه، كما تقدم. فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضي الإضافة إليه.

وأما السيئة، فهو إنما يخلقها بحكمة، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه؛ فإن الرب لا يفعل سيئة قطُّ، بل فعله كُلُّه حسنٌ وحسنات وفعله كله خير.

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «**والخيرُ بيديك، والشَّرُّ لَيسَ إليك**».

فإنه لا يخلق شرًّا محضًا، بل كلُّ ما يخلقه ففيه حكمة، هو باعتبارها خير. ولكن قد يكون فيه شرٌّ لبعض الناس. وهو شرٌّ جزئي إضافي. فأما شر كلي أو شرٌّ مطلق، فالربُّ منزهٌ عنه. وهذا هو الشر الذي ليس إليه.

وأما الشر الجزئي الإضافي، فهو خير باعتبار حكمته؛ ولهذا لا يضاف الشر إليه مفردًا قط، بل إما يدخل في عموم المخلوقات، كقوله: **﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ﴾** [الفرقان: ٢]، وإما أن يضاف إلى السبب،

كقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]، وإما أن يحذف فاعله كقول الجن: ﴿وَأَنَّا لاَ نَدرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرضِ أَم أَرَادَ بِهِم رَبُّهُم رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

ثم قال رحمه الله بعد ذلك تحت عنوان: «الله تعالى لا يفعل قبيحًا ولا سيئًا قط»[1]: «والمقصود هنا أن «الحسنة» مضافة إليه سبحانه من كل وجه، و«السيئة» مضافة إليه؛ لأنه خلقها كما خلق «الحسنة»؛ فلهذا قال: ﴿كُلٌّ مِن عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

ثم إنه خلقها لحكمة، ولا تضاف إليه من جهة أنها سيئة، بل تضاف إلى النفس التي تفعل الشر بها لا لحكمة؛ فتستحق أن يضاف الشر والسيئة إليها؛ فإنها لا تقصد بما تفعله من الذنوب خيرًا، يكون فعله لأجله أرجح. بل ما كان هكذا فهو من باب الحسنات. ولهذا كان فعل الله حسنًا، ولا يفعل قبيحًا ولا سيئًا قط.

وقد دخل في هذا سيئات الجزاء والعمل؛ لأن المراد بقوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِن حَسَنَةٍ﴾ و ﴿مِن سَيِّئَةٍ﴾ النعم والمصائب، كما تقدم... وإنما جعلها منه مع الحسنة بقوله: ﴿كُلٌّ مِن عِندِ اللَّهِ﴾ كما تقدم؛ لأنها لا تضاف إلى الله مفردة، بل إما في العموم كقوله: ﴿كُلٌّ مِن عِندِ اللَّهِ﴾.

(١) وهذا العنوان لعله من محققة الكتاب.

... وكل ما خلقه - مما فيه شرٌّ جزئيٌّ إضافي - ففيه من الخير العام والحكمة والرحمة أضعاف ذلك. مثل: إرسال موسى إلى فرعون فإنه حصل به التكذيب والهلاك لفرعون وقومه، وذلك شر بالإضافة إليهم، ولكن حصل به من النفع العام للخلق إلى يوم القيامة، والاعتبار بقصة فرعون ما هو إلا خير عام؛ فانتُفِعَ بذلك أضعاف أضعاف من استضر به.. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥-٥٦]. وقال تعالى بعد ذكر قصته: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٦] اهـ.

وبمثل ذلك قال صاحب (شرح العقيدة الطحاوية) في شرح قوله «وبالقدر خيره وشره، وحلوه ومره، من الله تعالى».

وقال الألباني: «والشر ليس إليك» أي: لا ينسب الشر إلى الله تعالى؛ لأنه ليس في فعله شر، بل أفعاله - عز وجل - كلها خير؛ لأنها دائرة بين العدل والفضل والحكمة، وهو كله خير لا شر فيه، والشر إنما صار شرًّا لانقطاع نسبته وإضافته إليه تعالى»[1].

* * *

---

(١) "صفة الصلاة" ص٩٢، وانظر كتاب "شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والتعليل".

فصـــل
«عجبًا لأمر المؤمن»

■ عـن أبي يحيى صهيـب بـن سنـان رضي الله عنـه قال: قـال رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لأَمرِ المؤُمِنِ إنَّ أَمرَهُ كُلَّهُ لَـهُ خَيرٌ، وَلَيسَ ذَلِكَ إلاَّ لِلمُؤمِنِ: إن أَصَابَتـهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَـانَ خَـيرًا لَـهُ، وَإِن أَصَابَتهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيرًا لَهُ**»(1).

■ عـن أبي سعيـد الخـدري وأبي هـريرة رضي الله عنهمـا عـن النبي ﷺ قال: «**مَا يُصِيبُ المسلِمَ مِن نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حَزَنٍ وَلاَ أَذَى وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَوكَةِ يُشَاكُها إلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِن خَطَايَاهُ**»(2).

■ عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِن مُصِيبَـةٍ تُصِيبُ المسلِـمَ إلاَّ كَفَّـرَ اللَّهُ بهَـا عَنـهُ، حَتَّى الشَّوكَـةِ يُشَاكُهَا**»(3).

وفي روايه لمسلـم: «**مَـا مِـن شَيءٍ يُصِيبُ المؤمـن حَتَّى الشَّوكَـةِ تُصِيبُهُ، إلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بهَا حَسَنَةً أَو حُطَّت بِهَا خَطِيئَةٌ**».

(1) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) الزهد.
(2) متفق عليه. البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣).
(3) متفق عليه. البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢).

دلت هذه الأحاديث النبوية أن هناك صنفًا من الناس لهم في المصائب والمحن التي تصيبهم تكفير للذنوب، ورفع في الدرجات وهم المؤمنون. والمؤمن هو الذي آمن بالله ربًا وبرسله كلهم، وبالملائكة والكتب واليوم الآخر، وآمن بالقدر خيره وشره.

والمؤمن الذي آمن بالله ربًا يعلم أن الله عز وجل ما كان يضره بشيء ليس فيه من المصلحة له في الدنيا والآخرة، ولذلك فحال المؤمنين الذين يصيبهم البلاء أنهم ينظرون في هذا البلاء لا من جهة الضرر بل من جهة ما يعود عليهم هذا البلاء به من المصلحة والنفع، فإنهم كلما شاهدوا العِوَض هان عليهم تحمل المشاق والبلاء فيخف عنهم ثقل البلاء، وكذلك كلما تمكنت محبة الله تعالى من قلب المؤمن ورسخت فيه، كان أذى المحبّ في رضى محبوبه مُستحلىً غيرَ مسخوط، والمحبون يفتخرون أنهم يُذكَرون عند أحبابهم حتى قال قائلهم:

لئن ساءني أن نلتني بِمَساءة لقد سرّني أني خطرتُ ببالك

فما الظن بمحبة المحبوب الأعلى، الذي ابتلاؤه لحبيبه رحمة منه له وإحسان إليه.

وقال ابن المبارك: قال سفيان: ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة.

فصــل

في قول الله تعالى: ﴿وَنَبلُوكُم بِالشَّرِّ وَالخَيرِ فِتنَةً﴾

يقول الله عز وجل: ﴿وَنَبلُوكُم بِالشَّرِّ وَالخَيرِ فِتنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] قال ابن كثير: «أي نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط. كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول: ﴿وَنَبلُوكُم﴾ يقول: نبتليكم ﴿بِالشَّرِّ وَالخَيرِ فِتنَةً﴾ بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام والطاعة والمعصية والهدى والضلال».

فالله سبحانه وتعالى ابتلى الإنسان بالخير كما ابتلاه بالشر، وهو سبحانه وتعالى يحب من عباده تكميلَ عُبوديتهم على السراء والضراء، وفي حال البلاء والعافية، فللّه سبحانه على العباد في كلتا الحالتين عبودية بمقتضى تلك الحال.

وكما أن الصبر على البلاء نصف الإيمان، فكذلك الشكر على النعماء نصف الإيمان؛ وذلك لأن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية، وهي ترجع إلى شطرين: فعل وترك، فالفعل: هو العمل بطاعة الله تعالى وهو حقيقة الشكر وفي حديث عائشة قالت: أن النبي ﷺ كان يَقُومُ من اللَّيلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاه، فقالت له: لِمَ تَصنعُ

هَـذَا يا رَسُولَ اللهِ، وَقَد غَفَرَ اللهُ لك ما تَقَدَّمَ من ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فقال: «**أَفَلاَ أُحِبُّ أَن أَكُونَ عَبدًا شَكُورًا**»[1].

والترك: وهو الصبر عن المعصية، والدين كله في هذين الشيئين «فعل المأمور، وترك المحظور».

والشكر على تلك النعم التي يسبغها الله عز وجل على الإنسان بالليل والنهار يحتاج إلى الصبر؛ وذلك من وجوه:

أحدها: أن لا يركن إليها ولا يغتر بها ولا تحمله على البَطَرِ والأَشَرِ والفَرَحِ المذموم الذي لا يحب اللهُ أهلَه.

الثاني: أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها، فإنها تنقلب إلى أضدادها فمن بالغ في الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلى ضده، وحُرم الأكل والشرب والجِماع.

الثالث: أن يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضيعه فيُسلبها.

الرابع: أن يصبر عن صرفها في الحرام، فلا يمكّن نفسه من كل ما تريده منها فإنها توقعه في الحرام، فإن احترز كل الاحتراز أوقعته في المكروه، ولا يصبر على السراء إلا الصدّيقون.

قال بعض السلف: البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا الصدّيقون.

---

(١) متفق عليه. البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨١٩، ٢٨٢٠).

وقال عبد الرحمن بن عوف: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر[1].

قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]. قال الطبري: «أما قوله: ﴿وَفِي ذَلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُم عَظِيمٌ﴾، فإنه يعني: وفي الذي فعلنا بكم من إنجائناكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون إياكم على ما وصفت بلاءٌ لكم من ربكم عظيم. ويعني بقوله: «بلاء» نعمة ثم ذكر آثارًا من ابن عباس والسدي ومجاهد وابن جريج أن البلاء في هذه الآية هو النعمة.

ثم قال: «وأصل «البلاء» في كلام العرب الاختبار والامتحان، ثم يستعمل في الخير والشر؛ لأن الامتحان والاختبار قد يكون بالخير كما يكون بالشر، كما قال ربنا جل ثناؤه: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] يقول: اختبرناهم، وكما قال جل ذكره: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ثم تسمي العرب الخير «بلاءً» والشر «بلاءً» غير أن الأكثر في الشر أن يقول: «بلوته أبلوه بلاءً»، وفي الخير: «أبليته أبليه إبلاءً وبلاءً» ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

فجمع بين اللغتين؛ لأنه أراد: فأنعم الله عليهما خير النعم التي يختبر بها عباده.

---

(١) عدة الصابرين (ص ٦٥-٦٦ - ط. المتنبي).

فصل
فيما ورد في الصبر

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٍ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٍ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

والآيات في الأمر بالصبر وبيان فضله كثيرة معروفة.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعًا».

وذكر ابن قيم الجوزية هذه المواضع وبيان أنواعها في عدة الصابرين.

وعن أبي سعيد سعد بن مالك الخدري رضي الله عنه: أَنَّ نَاسًا مِنَ الأَنصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَعطَاهُم، ثُمَّ سَأَلُوه فَأَعطَاهُم، حَتَّى

نَفِدَ مَا عِندَهُ، فَقَالَ لَهُم حِينَ أَنفَقَ كُلَّ شَيءٍ بِيَدِهِ: «مَا يكُن عِندِي مِن خَيرٍ فَلَن أَدَّخِرَهُ عَنكُم، وَمَن يَستَعفِف يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَن يَستَغنِ يُغنِهِ اللَّهُ، وَمَن يَتَصَبَّر يُصَبِّرهُ اللَّهُ، وَمَا أُعطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيرًا وَأَوسَعَ مِنَ الصَّبرِ»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمِنِ كَمَثَلِ الزَّرعِ لا تَزالُ الرِّياحُ تُفيئُهُ، ولا يَزالُ المؤمِنُ يُصِيبُهُ بَلاءٌ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الأَرزِ لا تَهتَزُّ حتَّى تَستَحصِدَ»[2].

وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «مَن يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيرًا يُصِب مِنهُ»[3].

قال المنذري: «يصب منه»: أي يوجه إليه مصيبة ويصيبه ببلاء.

«يُصِب مِنهُ» بكسر الصاد، ورواه بعضهم بفتح الصاد. وقال ابن الجوزي: وهو أحسن وأليق. ورده الحافظ.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ، وَإنَّ الله تعالى إذا أَحَبَّ قَومًا ابتَلاهُم، فَمَن رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَن سَخِطَ فَلَهُ السُّخطُ»[4].

(١) متفق عليه. البخاري (١٤٦٩، ٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣).

(٢) مسلم (٢٨٠٩)، والأرز: بفتح الهمزة وتضم، وإسكان الراء بعدها زاي: هي شجرة الصنوبر، وقيل غير ذلك.

(٣) البخاري (٥٦٤٥).

(٤) فيه ضعف. أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١) وفيه سعد بن سنان أو =

وعن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ قَوْمًا ابتلاهُم، فَمَن صَبَرَ فَلَهُ الصَّبرُ، وَمَن جَزَعَ فَلَهُ الجَزَعُ»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ لَهُ عِندَ اللهِ المَنزِلَةُ فَمَا يَبلُغُهَا بِعَمَلٍ؛ فَمَا يَزَالُ اللَّهُ يَبتَلِيهِ بِمَا يَكرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يَزالُ البَلاءُ بالمؤمِنِ وَالمؤمِنَةِ في نَفسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلقَى الله وَمَا عَلَيهِ خَطِيئَةٌ»[3].

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: أَلاَ أُرِيكَ امرَأَةً مِن أهلِ الجَنَّةِ؟ فقلت: بَلَى. قال: هَذِهِ المَرأَةُ السَّودَاءُ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فقالت: إِنِّي أُصرَعَ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادعُ اللَّهَ لي. قال: «إِن شِئتِ صَبَرتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِن شِئتِ دَعَوتُ اللَّهَ أَن يُعافِيَكِ».

= سنان بن سعد وثقه ابن معين، وضعفه غيره وهو إلى الضعف أقرب، وللحديث شواهد منها الحديث التالي.

(١) أخرجه أحمد (٥/٤٢٨-٤٢٩) ومحمود بن لبيد اختلف في سماعه من النبي ﷺ وقال المنذري والهيثمي: "رواته ثقات".

(٢) حسن. أخرجه أبو يعلى (٦٠٩٥)، وصححه ابن حبان (٢٩٠٨)، والحاكم (١/٣٤٤)، وقال الهيثمي (٢/٢٩٢): رجاله ثقات.

وله شاهد عند أحمد (٥/٢٧٢)، وأبو داود (٣٠٩٠)، وأبو يعلى (٩٢٣) وفيه مجهولان.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٩)، وصححه ابن حبان (٢٩١٣، ٢٩٢٤)، والحاكم (٤/٣١٤).

فقالت: أصبرُ. فقالت: إنِّي أتَكَشَّفُ فادعُ اللهَ لِي أن لاَ أتَكَشَّفَ. فَدَعَا لَهَا[1].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِن عَبدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: إنَّا للهِ وَإنَّا إلَيهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أجُرنِي في مُصِيبَتِي وَأخلِف لِي خَيرًا مِنها إلاَّ آجَرَهُ اللهُ في مُصِيبَتِهِ وَأخلَفَ لَهُ خَيرًا مِنهَا**».

قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله فأخلف لي خيرًا منه، رسول الله ﷺ[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿**مَن يَعمَل سُوءًا يُجزَ بِهِ**﴾ [النساء: ١٢٣] بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا، فقال رسول الله ﷺ: «**قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، ففي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ المُسلِمُ كَفَّارَةٌ حَتَّى النَّكبَةِ يُنكَبُهَا وَالشَّوكَةِ يُشَاكُهَا**»[3].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: دخلت على النبي ﷺ فمسسته فقلت: يا رسول الله، إنك توعك وعكًا شديدًا؟ فقال: «**أجَل إنِّي**

---

(١) متفق عليه. البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦). وله شاهد عن أبي هريرة عند ابن حبان (٢٩٠٩)، والبزار (٧٧٢).

(٢) أخرجه مسلم (٩١٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٤). وله شاهد عن عائشة عند أحمد (٦/٦٥)، وصححه ابن حبان (٢٩٢٣)، وآخر عن أبي بكر الصديق عند ابن حبان (٢٩١٠).

أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنكُم. قلت: ذلك بأن لك أجرين ؟ قال: «**أَجَل مَا مِن مُسلِمٍ يُصِيبُهُ أَذَى مِن مَرَضٍ فَمَا سِواهُ إلاّ حَطّ اللّهُ بِهِ سَيّئاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَها**»[1].

قال ابن الجوزي: في الحديث دلالة على أن القوي يحمل ما حمل، والضعيف يرفق به إلا أنه كلما قويت المعرفة بالمبتلى هان عليه البلاء، ومنهم من ينظر إلى آخر البلاء فيهون عليه البلاء، وأعلى من ذلك درجة من يرى أن هذا تصرف المالك في ملكه فيسلم ولا يعترض، وأرفع منه من شغلته المحبة عن طلب رفع البلاء، وأنهى المراتب من يتلذذ به لأنه عن اختياره نشأ، والله أعلم[2].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول : «**إنَّ اللّه قال: إذَا ابتَلَيتُ عَبدِي بِحَبِيبَتَيهِ فَصَبَرَ عَوَّضتُهُ مِنهُما الجَنَّةَ**»[3] يريد عينيه.

قال الحافظ ابن حجر: «والمراد أنه يصبر مستحضرًا ما وعد الله به الصابر من الثواب، لا أن يصبر مجردًا عن ذلك؛ لأن الأعمال بالنيات، وابتلاء الله عبده في الدنيا ليس من سخطه عليه بل إما

(١) متفق عليه. البخاري (٥٦٤٧)، ومسلم (٢٥٧١).
(٢) فتح الباري شرح حديث (٥٦٤٨).
(٣) أخرجه البخاري (٥٦٥٣).

لدفع مكروه أو لكفارة ذنوب أو لرفع منزلة، فإذا تلقى ذلك بالرضا تم له المراد وإلا يصبر».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِن مُسلِمٍ يَمُوتُ لَهُ ثَلاثَةٌ لَم يَبلُغوا الحِنثَ إلاَّ أدخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ بِفَضلِ رَحمَتِهِ إيَّاهُم**».

وفي رواية: «**مَنِ احتَسَبَ ثَلاثَةً مِن صُلبِهِ دَخَلَ الجَنَّةَ**» فقامت امرأة فقالت: أو اثنان؟ فقال ﷺ: «**أَوِ اثنَانِ**» قالت المرأة: يا ليتني قلت: واحدًا [1].

وقوله: «**لم يَبلُغُوا الحِنثَ**»: والحنث هو الإثم والذنب، والمعنى أنهم لم يبلغوا السنّ الذي تكتب عليهم فيه الذنوب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَمُوتُ لأَحَدٍ مِنَ المسلمين ثَلاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ إلاَّ تَحِلَّةَ القَسَمِ**»[2].

قال النووي في «رياض الصالحين»: **وتحلة القسم**: قول الله تعالى: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا**﴾ والورود: هو العبور على الصراط، وهو جسر منصوب على ظهر جهنم. عافانا الله منها[3].

---

(١) متفق عليه. البخاري (١٢٤٨)، ومسلم (٢٦٣٤)، والرواية للنسائي (٤/٢٤).
(٢) متفق عليه. البخاري (١٢٥١)، ومسلم (٢٦٣٢).
(٣) رياض الصالحين ص٣١٥.

والأحـاديث في هـذا المعنى كثـيرة كثـيرة لا نستطيع أن نوردهـا كلها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله.

أما الآثار عن السلف فكثيرة منها.

قـال أبو هريـرة رضي الله عنـه: «ما من مسلم إلا وكل الله به ملكـين مـن ملائكتـه لا يفارقانـه حتى يقضي الله بـأمره بإحـدى الحسنيين، إما بموت وإما بحياة، فإذا قال له العُوَّاد: كيف تجدك؟ قال: أحمد الله أجدني والله المحمود بخير. قال له الملكان: أبشر بدم هو خير من دمك وصحة هي خير من صحتك. وإن قال: أجدني مجهودًا في بلاء شديد. قال لـه الملكان: أبشر بدم هو شر من دمك وبلاء أطول من بلائك».

قال ابن قيم الجوزية في «عدة الصابرين»[1]: «ولا يناقض هذا قـول النبي ﷺ في وجعـه: وارأساه، وقـول سعـد: يا رسـول الله قد اشتـد بي الوجع وأنا ذو مال، وقول عائشة: وارأساه؛ فإن هذا إنما قيـل على وجه الإخبار لا على وجه شكوى الرب تعالى إلى العواد، فإذا حمد المريض الله ثم أخبر بعلته لم يكن شكوى منه، وإن أخبر بها تبرمًا وتسخطًا كان شكوى منه. فالكلمة الواحدة قد يثاب عليها، وقد يعاقب بالنية والقصد».

(١) عدة الصابرين ص٩٢.

وعن هلال بن يساف قال: «كنا قعودًا عند عمار بن ياسر فذكروا الأوجاع، فقال أعرابي: ما اشتكيت قط، فقال عمار: ما أنت منا أو لست منا. إن المسلم يبتلى ببلاء فتحط عنه ذنوبه كما يحط الورق من الشجرة، وإن الكافر أو قال الفاجر يبتلى ببلية فمثله مثل البعير إن أُطلق لم يدر لِمَ أطلق، وإن عقل لم يدر لِمَ عقل».

* * *

فصل
في الفتن

الفتن: جمع فتنة.

قال الراغب: أصل الفتن إدخال الذهب في النار لتظهر جودته من رداءته، ويستعمل في إدخال الإنسان النار، ويطلق على العذاب كقوله: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٤]. وعلى ما يحصل عند العذاب كقوله: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩] ، وعلى الاختبار كقوله: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]، وفيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وفي الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالاً قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ومنه قوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] أي يوقعونك في بلية وشدة في صرفك بما أوحى إليك.

وقال غيره: أصل الفتنة الاختبار، ثم استعملت فيما أخرجته المحنة والاختبار إلى المكروه(١).

ومقصودنا هنا هو الفتنة التي يوقعها الله عز وجل على العباد ليختبرهم في دينهم فمن كان قويًّا في دينه لم تؤثر هذه الفتن فيه، بل تزيده صلابة في دينه وتمسكًا به، ومن كان في دينه لين ارتد على عقبيه لخسر الدنيا والآخرة، أعاذنا الله من مضلات الفتن.

(١) من كتاب فتح الباري الجزء ١٣ كتاب الفتن.

فصل
«لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه»

عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما يلقون من الحَجَّاج، فقال: اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشر منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ[1].

والحجاج هو ابن يوسف الثقفي الأمير المشهور وكان ظالماً عاصيًا جبارًا قتالا للعلماء والصالحين.

قال ابن بطال: هذا الخبر من أعلام النبوة لإخباره ﷺ بفساد الأحوال، وذلك من الغيب الذي لا يُعلم بالرأي، وإنما يعلم بالوحي[2].

وقد أخبر عبد الله بن مسعود رضي الله بالمراد من الشر الذي يقع في الأزمان المتأخرة فقال: «لا يأتي عليكم يوم إلا وهو شر من اليوم الذي كان قبله حتى تقوم الساعة، لست أعني رخاء من العيش يصيبه ولا مالاً يفيده، ولكن لا يأتي عليكم يوم إلا وهو أقل علمًا من اليوم الذي مضى قبله، فإذا ذهب العلماء استوى الناس

(١) البخاري (٧٠٦٨).
(٢) فتح الباري (١٣/٢٣).

فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر فعند ذلك يهلكون»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**بَادِروا بالأَعمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ الليلِ المظلمِ يُصبحُ الرَّجُلُ مُؤمِنًا وَيُمسِي كَافِرًا أَو يُمسِي مُؤمِنًا وَيُصبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِن الدُّنيَا**»[2].

وفي الحديث إشارة إلى تتابع الفتن المضلة أواخر الزمان، وكلما انقضى منها فتنة تعقبها أخرى.

عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعا يقول: «**سبحان الله! ماذا أنزل الله من الخزائن، وماذا أنزل من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجرات - يريد أزواجه - لكي يصلين؟ رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة**»[3].

* * *

(١) أخرجه يعقوب بن شيبة كما في "فتح الباري" (١٣/٢٤).
(٢) أخرجه مسلم (١١٨).
(٣) البخاري (٧٠٦٩).

فصل

في قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُترَكُوا ...﴾

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُترَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُم لاَ يُفتَنُونَ ۝ وَلَقَد فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبلِهِم فَلَيَعلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

قال ابن كثير رحمه الله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُترَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُم لاَ يُفتَنُونَ﴾ استفهام إنكار ومعناه أن الله سبحانه وتعالى لابد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان كما جاء في الحديث الصحيح: «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء**». وهذه الآية كقوله: ﴿أَم حَسِبتُم أَن تَدخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوا مِن قَبلِكُم مَسَّتهُمُ البَأسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. ولهذا قال ههنا: ﴿وَلَقَد فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبلِهِم فَلَيَعلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في

قوله ودعواه، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة...

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِن رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠-١١].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى مخبرًا عن صفات قوم من المكذّبين الذين يدَّعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت الإيمان في قلوبهم بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم فارتدوا عن الإسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله. وكذا قال غيره من علماء السلف. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [الحج: ١١]. ثم قال عز وجل: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِن رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي لئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد وفتح ومغانم ليقولن هؤلاء لكم: إنا كنا معكم، أي إخوانكم في الدين.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَوَلَيسَ اللَّهُ بِأَعلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ العَالَمِينَ﴾ أي أوليس الله بأعلم بما في قلوبهم وما تكنه ضمائرهم وإن أظهروا لكم الموافقة؟ وقوله تعالى : ﴿وَلَيَعلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعلَمَنَّ المُنَافِقِينَ﴾ أي وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء ليتميز هؤلاء من هؤلاء من يطيع الله في الضراء والسراء، ومن إنما يطيعه في حظ نفسه.... ا.هـ.

* * *

فصل
الفتن تميز بين المؤمنين والمنافقين

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُم عَلَيهِ حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ..﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي لابد أن يعقد شيئًا من المحنة يُظهر فيه وليَّه، ويفضح به عدوه، يعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجَلَدهم وثباتهم وطاعتهم لله ورسوله ﷺ، وهتك به ستار المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ ....» اهـ.

فما حدث في غزوة أُحد من هزيمة للمؤمنين، كان ذلك لحكمة من الله عز وجل ليميز بين المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر والشرك، وبين المؤمنين حقًّا. وقريبًا من هذا ما حدث في غزوة الخندق غزوة الأحزاب عندما تكاتلت قوى الشر لتطفيء نور الإيمان من جزيرة العرب، فأظهر الله المنافقين والذين في قلوبهم مرض بقولهم: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ [الأحزاب: ١٢] ولم

يكتفوا بهذا القول بل أخذوا يحرّضون المؤمنين الثابتين على طاعة الله ورسوله ﷺ على ترك القتال مع رسول الله ﷺ قائلين: ﴿يَا أَهلَ يَثرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارجِعُوا﴾ وأخذوا يتحجّجون بحجج واهية ليتركوا القتال مع رسول الله والمؤمنين ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَورَةٌ وَمَا هِيَ بِعَورَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾، وفريق آخر على النقيض الآخر ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُم إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسلِيمًا﴾ فهذا قولهم عندما رأوا الجموع المجتمعة لقتالهم. قال ابن عباس وقتادة: يعنون بذلك قوله تعالى: ﴿أَم حَسِبتُم أَن تَدخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوا مِن قَبلِكُم...﴾ [البقرة: ٢١٤] أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُم﴾ ذلك الحال والضيق والشدة ﴿إِلاَّ إِيمَانًا﴾ بالله ﴿وَتَسلِيمًا﴾ أي انقيادًا لأوامره وطاعة لرسوله ﷺ.

ثم قال سبحانه بعد ذلك: ﴿لِيَجزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدقِهِم وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَو يَتُوبَ عَلَيهِم إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤].

قال ابن كثير: أي إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب فيظهر أمر هذا بالفعل وأمر هذا بالفعل مع أنه

تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه منهم. ا.هـ.

فهذه نعمة عظيمة في الفتن والمحن تميز الصف فيتميز المؤمن الصادق من المنافق الفاجر، فيصبح المؤمنون يدًا واحدة على عدوهم.

*   *   *

فصل
في الحِكَم الربانية في الفتن والمحن

الناظر إلى تاريخ المسلمين يرى أن الفتن والمحن كانت من الأسباب القوية إلى رجوعهم وعودتهم إلى طاعة الله عز وجل وإلى طاعة رسوله ﷺ .

قال ابن حجر رحمه الله: «قال العلماء: وكان في قصة أُحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة: منها تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية وشؤم ارتكاب النهي، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول أن لا يبرحوا منه»[1].ا.هـ.

فالله سبحانه وتعالى إنما ضمن نصر دينه وحزبه وأوليائه القائمين بدينه علمًا وعملاً، لم يضمن نصر الباطل، ولو اعتقد صاحبه أنه محق، وكذلك العزة والعلو إنما هما لأهل الإيمان الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو علمٌ وعملٌ وحال، قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الأَعلَونَ إن كُنتُم مُؤمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] فللعبد من العلو بحسب ما معه من الإيمان، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلمُؤمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]

(١) "فتح الباري" (٧/٤٠٢- الريان).

فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه، فإذا فاته حظٌّ من العلو والعزة، ففي مقابلة ما فاته من حقائق الإيمان علمًا وعملاً ظاهرًا وباطنًا.

وكذلك الدفاع عن العبد هو بحسب إيمانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨] فإذا ضعف الدفاع عنه فهو من نقص إيمانه.

وكذلك الكفاية والحسب هي بقدر الإيمان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] أي: الله حسبك وحسب أتباعك، أي كافيك وكافيهم، فكفايته لهم بحسب اتباعهم لرسوله، وانقيادهم له، وطاعتهم، فما نقص من الإيمان عاد بنقصان ذلك كله.

وكذلك معيته الخاصة هي لأهل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩] فإذا نقص الإيمان وضعف، كان حظُّ العبدِ من ولاية الله له ومعيته الخاصة بقدر حظه من الإيمان.

وكذلك النصر والتأييد الكامل، إنما هو لأهل الإيمان الكامل، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. وقال: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد، ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله، أو بإدالة عدوه عليه، فإنما هي بذنوبه، إما بترك واجب، أو فعل محرم وهو من نقص إيمانه.

وقد قال الله تعالى للمؤمنين: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. وقال تعالى: ﴿فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُم وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم، التي هي جند من جنود الله يحفظهم بها، ولا يفردها عنهم ويقتطعها عنهم، فيبطلها عليهم، كما يَتِرُ الكافرين والمنافقين أعمالهم، إذ كانت لغيره، ولم تكن موافقة لأمره(١).

قال ابن القيم رحمه الله: إن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم، وقهرهم وكسرهم لهم أحيانًا فيه حكمة عظيمة، لا يعلمها على التفصيل إلا الله عز وجل.

فمنها: استخراج عبوديتهم وذلهم لله، وانكسارهم له وافتقارهم إليه، وسؤاله نصرهم على أعدائهم، ولو كانوا دائمًا منصورين قاهرين غالبين لبَطِروا وأشِروا، ولو كانوا دائمًا مقهورين مغلوبين منصورًا عليهم

(١) "إغاثة اللهفان" (٢/٢٢٢).

عدوهم لما قامت للدين قائمة، ولا كانت للحق دولة، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرفهم بين غلبهم تارة، وكونهم مغلوبين تارة، فإذا غُلِبوا تضرعوا إلى ربهم، وأنابوا إليه، وخضعوا له، وانكسروا له، وتابوا إليه، وإذا غَلَبُوا أقاموا دينه وشعائره، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وجاهدوا عدوه، ونصروا أولياءه.

ومنها: أنهم لو كانوا دائمًا منصورين غالبين قاهرين لدخل معهم مَن ليس قصدُه الدين ومتابعة الرسول، فإنه إنما ينضاف إلى مَن له الغلبة والعزة، ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائمًا لم يدخل معهم أحدٌ، فاقتضت الحكمة الإلهية أن كانت لهم الدَّوَلةُ تارة، وعليهم تارة. فيتميز بذلك بين مَن يريد الله ورسوله، ومَن ليس له مرادٌ إلا الدنيا والجاه.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، وفي حال إدالتهم والإدالة عليهم، فللَّه سبحانه على العباد في كلتا الحالين عبودية بمقتضى تلك الحال، لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب بدونها، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد، والجوع والعطش، والتعب والنصب، وأضدادها، فتلك المحن والبلايا شرطٌ في حصول الكمال الإنساني والاستقامة المطلوبة منه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

ومنها: أن امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم يمحصهم ويخلصهم ويهذبهم، كما قال تعالى في حكمة إدالة الكفار على المؤمنين يوم أُحد: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٢].

فذكر سبحانه أنواعًا من الحكم التي لأجلها أُديل عليهم الكفار، بعد أن ثبَّتهم وقوَّاهم وبشرهم بأنهم الأعلون بما أُعطوا من الإيمان، وسلأَّهم بأنهم وإن مسهم القرحُ في طاعته وطاعة رسوله، فقد مس أعداءَهم القرحُ في عداوته وعداوة رسوله.

ثم أخبرهم أنه سبحانه بحكمته يجعل الأيام دُوَلاً بين الناس؛ فيصيب كلاًّ منهم نصيبه منها، كالأرزاق والآجال.

ثم أخبرهم أنه فعل ذلك ليعلم المؤمنين منهم، وهو سبحانه بكلّ شيء عليم قبل كونه وبعد كونه، ولكنه أراد أن يعلمهم موجودين مشاهدين، فيعلم إيمانهم واقعًا.

ثم أخبرَ أنه يُحب أن يتَّخِذ منهم شهداء، فإن الشهادة درجة

عالية عنده، ومنزلة رفيعة لا تنال إلا بالقتل في سبيله، فلولا إدالة العدو لم تحصل درجة الشهادة التي هي من أحب الأشياء إليه، وأنفعها للعبد.

ثم أخبر سبحانه أنه يريد تمحيص المؤمنين، أي تخليصهم من ذنوبهم بالتوبة والرجوع إليه واستغفاره من الذنوب التي أديلَ بها عليهم العدو، وأنه مع ذلك يريد أن يمحق الكافرين ببغيهم وطغيانهم وعدوانهم إذا انتصروا.

ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم دخول الجنة بغير جهاد ولا صبر، وأن حكمته تأبى ذلك، فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر، ولو كانوا دائمًا منصورين غالبين لما جاهَدَهم أحد ولما ابتلوا بما يصبرون عليه من أذى أعدائهم.

فهذا بعض حكمه في نصرة عدوهم عليهم، وإدالته في بعض الأحيان. اهـ[1].

* * *

(١) "إغاثة اللهفان" (٢/٢٣٢-٢٣٤).

فصـــل

نماذج من ابتلاء الصالحين

قـال الله تعـالى: ﴿وَكَذَٰلِـكَ جَعَلنَـا لِكُـلِّ نَبِيٍّ عَـدُوًّا شَيَاطِينَ الإنسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعضُهُم إِلَىٰ بَعضٍ زُخرُفَ القَـولِ غُرُورًا وَلَـو شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرهُم وَمَا يَفتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

فما من نبي ولا رسولٍ جاء بالحق والهدى من الله سبحانه وتعالى إلا عودي وحورب وأخرجه قومه من بينهم، وفي الحديث: «فقال لـه ورقة: هـذا النـاموس الـذي نزل على موسى يـا ليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكون حيًا إذ يُخرجُك قومُك. فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجيَّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودي» [البخاري حديث رقم ٣].

وقال الله جل جلاله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَومِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخرِجُوهُم مِن قَريَتِكُم إِنَّهُم أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢] وهي حكاية عن جواب قوم لوط للوط عليه السلام، لما أمرهم أن لا يأتوا الرجال شهوة من دون النساء.

وهذا شعيب عليه السلام جاء قومه بالبينات والهدى وأمرهم أن لا يفسدوا في الأرض، وأن لا يصدوا عن سبيل الله فـ ﴿قَالَ المَلَأُ الَّذِينَ استَكبَرُوا مِن قَومِهِ لَنُخرِجَنَّكَ يَا شُعَيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا

مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَو لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

وقال تعالى لنبيّه محمد ﷺ: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُم﴾ [البقرة: ١٢٠].

هذا، ولم يكن إيذاء الكفار والمنافقين للرسل والأنبياء فقط، بل كان أيضًا لمن اتبعهم من المؤمنين والصالحين.

والقارئ في تاريخ الأمم والشعوب يجد أن أمة الإسلام ضربت الأمثال العظيمة في الثبات على دينها، ولن نستطيع في هذه العجالة أن نأتي على جميع هذه الأمثال لكثرتها، ولذا فسنكتفي بذكر ثلاث قصص.

* **فتى قريش المدلل «مُصعب بن عُمير»:**

عن سعد بن مالك قال: كنا قبل الهجرة يصيبنا ظلف العيش وشدَّتُه، فلا نصبر عليه، فما هو إلا أن هاجرنا، فأصابنا الجوع والشدة، فاستضلعنا بهما، وقوينا عليهما. فأما مصعب بن عمير فإنه **كان أترف غلام بمكة بين أبويه فيما بيننا**، فلما أصابه ما أصابنا، لم يقو على ذلك، فلقد رأيته وإنّ جلده ليتطاير عنه تطاير جلد الحية، ولقد رأيته ينقطع به، فما يستطيع أن يمشي، فنعرض له القسي ثم نحمله على عواتقنا، ولقد رأيتني مرّةً قمت أبول من الليل فسمعت تحت بولي شيئًا يجافيه، فلمست بيدي فإذا قطعة من جلد بعير، فأخذتها، فغسلتها حتى أنعمتها، ثم أحرقتها بالنار، ثم رضضتها

فشققت منها ثلاث شقات فاقتويت بها ثلاثًا [السير: ١/١٤٨].

وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: هاجرنا مع النبي ﷺ نلتمس وجه الله، فوقع أجرنا على الله، فمنّا من مات لم يأكل من أجره شيئًا. منهم مصعب بن عمير، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها. قتل يوم أحد فلم نجد ما نكفّنُهُ إلا بردة إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطينا رجليه خرج رأسه، فأمرنا النبي ﷺ أن نغطي رأسه، وأن نجعل على رجليه من الإذخر [البخاري (١٢٧٦)، ومسلم (٩٤٠)].

*** حق على كل مسلم أن يقبل رأس ابن حذافة «عبد الله بن حذافة»:**

عن أبي رافع قال: وجّه عمر جيشًا إلى الروم، فأسروا عبد الله ابن حُذافة، فذهبوا به إلى ملكهم، فقالوا: إن هذا من أصحاب محمد. فقال: هل لك أن تتنصَّرَ وأعطيك نصف ملكي؟ قال: **لو أعطيتني جميع ما تملك، وجميع ملك العرب ما رجعت عن دين محمد طرفة عين.** قال: إذًا أقتلك. قال: أنت وذاك. فأمر به فصُلب، وقال للرُّماة: ارموه قريبًا من بدنه، وهو يعرض عليه - أي يعرض الملك على عبد الله بن حذافة أن يتنصر - ويأبى عبد الله ذلك. فأنزله. ودعا بقدر، فصب فيها ماء حتى احترقت، ودعا بأسيرين من المسلمين، فأمر بأحدهما، فألقي فيها، وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى. ثم بكى. فقيل للملك: إنه بكى. فظن أنه قد جزع، فقال: رُدُّوه.

ما أبكاك؟ قال: قلت: هي نفس واحدة تلقى الساعة فتذهب، **فكنت أشتهى أن يكون بعدد شعري أنفس تُلقى في النار في الله.**

فقال له الطاغية: هل لك أن تقبّل رأسي وأُخلِّي عنك؟

فقال له عبدُ الله: وعن جميع الأُسارى؟ قال: نعم. فقبّل رأسه.

وقدم بالأُسارى على عُمر، فأخبره خبره. فقال عمر: **حقٌّ على كل مسلم أن يُقبل رأس ابن حُذافة، وأنا أبدأ. فقبل رأسه** [السير: ٢/١٤].

*** شبيه إبراهيم الخليل عليه السلام «أبو مسلم الخولاني»:**

عن شرحبيل قال: إن الأسود[1] تنبّأ باليمن، فبعث إلى أبي مسلم، فأتاه بنار عظيمة، ثم إنه ألقى أبا مسلم فيها، فلم تضره، فقيل للأسود: إن لم تنف هذا عنك أفسد عليك من اتبعك. فأمره بالرحيل فقدم المدينة، فأناخ راحلته ودخل المسجد يُصلّي، فبصر به عمر رضي الله عنه، فقام إليه، فقال: ممن الرجل؟ قال: من اليمن. قال: ما فعل الذي حرقه الكذابُ بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثُوَب. قال: نشدتك بالله، أنت هو؟ قال: اللهم نعم. فاعتنقه عمر وبكى، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين الصدّيق فقال: الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أراني في أمة محمد مَن صُنع به كما صنع بإبراهيم الخليل [السير: ٤/٨-٩].

(١) الأسود العنسي ارتد في أيام النبي ﷺ وكان أول من ارتد في الإسلام، ثم ادعى بعد ذلك النبوة.

خاتمـــة

فالحاصـل أن الله عز وجـل كتب على العبـاد مؤمنهم وكافرهم الابتلاء في الدنيا، فلابد من حصول الألم والمحنة لكل نفس آمنت أو كفرت، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً، ثم تكون له عاقبـة الدنيـا والآخـرة ﴿وَالعَاقِبَـةُ لِلمُتَّقِـينَ﴾، والكـافر والمنـافق والفاجر، تحصل له اللذة والنعيم ابتداء، ثم يصير إلى الألم فلا يطمع أحدٌ أن يخلص من المحنة والألم البتة.

واعلم أن مـا يصيبُ الكـافر والفـاجر والمنـافق مـن العـز والنصر والجاه، دون مـا يحصـل للمؤمنين بكثير، بل بـاطن ذلـك ذلٌّ وكسرٌ وهوان، وإن كان في الظاهر بخلافه.

قـال الحسـن رحمـه الله: «إنهـم وإن هملَجت بهـم الـبراذين وطقطقـت بهم البغـال إن ذل المعصيـة لفي قلوبهم، أبى الله إلا أن يُذلَّ مَن عصاه».

فما نال الكـافرون والمنافقون مـن المؤمنين نيـلاً إلا بسبب تـرك المؤمنـين طاعـة ربهم واتبـاع نبيهم؛ فلذلـك أورثهم الله ذلاً لا يـرفع عنهم إلا إذا رجعوا إلى دينهم واتباع نبيهم ﷺ.

فعُلم أن تلك المحن والفتن في الحقيقة هي رحمة من الله عز وجل بالمؤمنين ليمحصهم ويكفر عنهم ذنوبهم، فهي منن وليست بمحن، وعطايا وليست بمصائب.

قال رسول الله ﷺ: **«يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا...»**(١).

فالعافية خير للعبد من الوقوع في البلاء والفتن وقد يصبر وقد لا يصبر، أما إذا أصابته مصيبة فعليه بالصبر وليسأل الله عز وجل التثبيت.

قال رسول الله ﷺ: **«لا يتمنين أحدكم الموت لضُرٍّ أصابَهُ، فإن كان لابُدَّ فاعلاً فليقل: اللَّهم أحيني ما كانت الحياةُ خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاةُ خيرًا لي»**(٢).

* * *

(١) متفق عليه. البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢) عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه. البخاري (٦٣٥١)، ومسلم (٢٦٨٠) عن أنس.

فهرس

رقم الإيداع : ١١٠٧٨ / ٩٩
طبع بدار نوبار للطباعة